المحاضرة الافتتاحيّة

ندوة: استراتيجيات الترجمة "ترجمة النّصوص المقدّسة"

عبد الرزاق بنور

جامعة تونس

a.bannour@hotmail.fr

بسم الله الرحمان الرحيم

سيداتي الفضليات، سادتي الأفاضل

أيها الجمع الكريم،

إنّه لمن دواعي الاعتزاز أن أشارك في هذه الدورة من الملتقى السّنوي الذي ينظّمه "**مخبر تعليميّة الترجمة وتعدد الألسن**"؛ ومَا مثابرتي على حضوره إلاّ لِقيمة المشاركين فيه ولحسن تنظيمه ولطف الاستقبال. وإنّه لمن دواعي الإعجاب أن يكون هذا الملتقى في دورته العاشرة، فهذا العمر طويل جدّا بالنسبة للتظاهرات العلميّة، يغبطكم فيه حقّا أكثرُ من مخبر عريق عراقة بعض الجامعات الأجنبيّة. فهنيئا لكم، هنيئا، على المواظبة والجدّ. ثمّ إنّه لمن دواعي الفخر أن يشرّفني المنظمون بتقديم هذه الندوة (على رأسهم الأستاذ الدكتور **شريفي عبد الواحد** والأستاذ الصديق **خليل نصر الدين**)، يُعيدون بذلك الصلة العلميّة التّي تربطني بجامعة وهران، بعد أن سعى الساعون لقطعها. وإنّه لمن دواعي الأمل في مستقبل هذه الأمّة أن نرى كلَّ هذا الجمع التوّاق إلى المعرفة يحضر هذه الندوة لينهل من منابع العرفان ويلقّح معرفته بمعرفة الآخرين.

من المشروع أن يتساءل المرء لماذا نظَّم "**مخبر تعليميّة الترجمة وتعدد الألسن**" ندوات عدّة تحدَّث بعضها في النصّ القانوني، والإشهار والخطاب

السمعي البصري والتقييم، الخ. ولماذا فضّلها المنظمون بهذه الأسبقيّة وهي لا ترقى إلى درجة أهميّة ترجمة النّصوص المقدسة؟ هل كان هذا التأجيل في انتظار هدوء العواصف الدينيّة؟ أم كان هذا التروّي من باب الاستعداد لمجابهة مثل هذا التحدّي؟ فأيّ ميدان بإمكانه أن ينافس ترجمة النصوص المقدّسة أو يضاهيها أهميّة؟

ألم يكن أوّل نصّ مترجم في التاريخ (2200 قبل الميلاد) نصّا مقدسا، إذ رسَم أوّلُ معجم سومري-أكادي مزدوج اللغات المصطلحاتِ الدينيّةَ باللغتين. ألم يتمثّل أضخم وأطول مشروع ترجمة عرفته البشريّة في ترجمة مدوّنة النصوص المقدّسة في الديانة البوذيّة من السنسكريتيّة إلى الصينيّة واليابانيّة ولغة التِّبت، ذاك المشروع الذي دام أكثر من عشرة قرون وشمل ما لا يقلّ عن 15 ألف صفحة واشترك فيه مئات المترجمين؟

أي نصّ من النصوص مهما كانت قيمته الأدبية أو الفكريّة ارتقى في عدد اللغات التي ترجم إليها إلى مستوى القرآن أو الإنجيل أو حتّى إلى "كتاب مورمون" للدجّال جوزيف سميث؟ أليس من اللافت أن يترجم هذا الكتاب إلى 108 لغات وأن يباع منه في نسخته الأنغليزيّة أكثر من مليون وأربع مائة ألف نسخة إلى الساعة؟ أي كتاب حظي بما حظي به القرآن من حيث عدد ترجماته إلى الألمانيّة، مثلا، حيث تصدر له ترجمة كلّ سنتين منذ القرن الثامن عشر؟

ألم توضع أنظمةُ كتابةٍ للغات شفويّة غيرَ مكتوبة هدفها الوحيد ضبط الكتب المقدسة وترويجُها؟ ألم تكن أوّل الكتابات في تاريخ البشريّة مقدّسة؟ ألم يكن الإنجيل أوّل كتاب طبعه غرتمبرغ على آلته الثوريّة؟ ألم تمثّل

ترجمة النّصوص المقدّسة مشاريع نظريّة وتطبيقيّة ضخمة أسّست لها المجامع العلميّة والمخابرُ والمعاهد والمدارس والمؤسسات الخيريّة وحظيت باهتمام واسع ورصدت لها الأموال والموازنات؟ هل حظيت ترجمة أثرٍ من الآثار الأدبيّة أو العلمية بالانتباه الذي تحظى به كلّ ترجمة جديدة للقرآن، مثلا، حتّى لو كانت لا تساوي الورق الذي كتبت عليه؟

لا أحد ينكر أنّ أهمّ نظريّات الترجمة التّي أحدثت قطيعة بين المقاربة الكلاسيكيّة والمقاربة المرتبطة باسم إيجان نيدا Eugene Nida المعروفة بنظريّة "التكافؤ الديناميكي" قامت على نتائج أعماله في ترجمة النصّ المقدّس .فقد تفطّن نيدا إلى نسبيّة الثقافات ونسبيّة المقدسات وصعوبة الترجمة عندما لا نعتبر السياق الثقافي ونتمسك فقط بالنُّظم اللغويّة.

نيدا الذي يَذْكُر كيف إنّ الاستعارات السلبيّة (الوسخ والشبقيّة، مثلا) المرتبطة بالخنـــزير كانت تصدم شعب الپاپو (غينيا الجديدة) الذين كانوا يرون في الخنـــزير مثال الجمال والحياة واللطف. كان بالنسبة إليهم أحا في الرضاعة، إذ ترضع المرأة منهم ابنها بثديها الأيمن وصغير الخنازير بثديها الأيسر **!**وكان الرّجل منهم يَقتُل ويُقتَل من أجل خنزير وكانت المرأةُ منهم تنتحر إذا لم يلقَ خنـــزيرها الاحترامَ المنتظر.

ثمّ ألا يمثّل سُكوت المسلمين عن ترجمة القرآن والقبول بها تطوّرا كبيرا في العقليات؟ ألم تكن ترجمة القرآن العربيّ المُبين محظورة حظرا؟ خاصّة إذا علمنا أنّ محاولات ترجمته الأولى في القرن الثاني عشر (روبار دي كينيت Robert de Kennet، مثلا) كانت تهدف إلى تشويهه**!**؟

هذا يطرح بالطبع قضيّة الموضوعيّة في ترجمة النصوص المقدّسة، وبخاصّة النصوص المقدسة عند الآخرين. فهذه النصوص تكون في العادة كثيفة عميقة وقلّما تكون شفافة حاملة لمعنى واضح مباشر. لذلك تكون هذه النصوص عرضة للتأويلات التّي يحاول كلّ طرف استجلابها حسب مصالحه وقراءاته. فيُحمَّل النّص الكثيف أكثر ممّا يقول، لذلك لا عجب إذا رأينا من يزعم أنّ المعنى الخفي أكبر بكثير من المعنى الظاهر وأنّ الرسالة المخفيّة أهمّ من المصرَّح به !هذه الخاصيّات المرتبطة بالنصّ المقدس تترك مجالا كبيرا للمناورات المغرضة (ترجمة شوراكي للقرآن، نموذجا) أو للأخذ والردّ وتراكم التأويلات وتضاربها أحيانا، وهذا سبيل لفتح الباب أمام تعدّد الترجمات بتعدد أوجه النّظر. من هذا المنطلق، لن تكون ثَمّةَ ترجمةٌ نهائيّة ولا ترجمة مرضيّة، لأنّ هذه أهملت ذاك الجانب وتلك لم تهتمّ بالإيقاع والأخرى لم تعترف بأسباب النّزول (ولا ندري عندها هل سنهتم بالكتاب أو بحواشيه)، الخ. ولن نجد تمثيلا أحسن عن قصّة الفيل مع العُميان من ترجمة القرآن. فالكلّ يزعم أنّه أمسك بالحقيقة لمجرد أنّه أمسك بجزء منها، مع أنّ مجموع الأجزاء لا يفي بالحاجة أصلا إذ أنّ قبّة وحبلا وسارية ورمحا وخرطوما طويلا لا يكوّنون مجتمعين فيلا بأية حال.

ألا تمثّل ترجمة المسلمين أنفسهم للقرآن نقلة نوعيّة تتخطى اعتراض شرط معرفته من الداخل وتدرأ عنه محاولة المساس من قدسيّته؟ الإجابة عن هذا السؤال موكولة إلى المتدخلين، لكنّ كثافة النصّ المتأصلة فيه تجعله عرضة لعدم الموضوعيّة بين القراءات المذهبيّة (السنّة والشيعة، مثلا) وتُبقي على السؤال المنهجي الأوّل على حاله: هل يبقى النص المقدَّس مقدسا بعد ترجمته؟ وهل يتعامل المسلم، حميد الله أو الصادق مازيغ مع القرآن العربي تعامله مع نصّ

القرآن الفرنسي الذي ترجمه؟ هل يعتبر النصّ المترجم قرآنا؟ السؤال مطروح على الجميع.

لكن، يجب أن نذكّر، هنا، أنّ أكثر من ثلثي البشريّة تقبلت كتبها المقدسة عن طريق الترجمة؟ فكيف كان يمكن أن يكون المشهد لو لم يترجِم الصينيون نصوصهم البوذيّة المقدسة من السنسكريتيّة؟ وكذلك اليابانيون وشعوب آسيويّة أخرى؟ وإذا وضعنا في الحسبان موت السنسكريتيّة باعتبارها لغة الهندوس المقدَّسة، فإنّنا نعي بأنّ مليارا من البشر يُحيي شعائره الدينيّة ويقيم طقوسه في غير اللغة التّي جاءت بها. وكلّ النّاس يعرفون دور الترجمة في إيصال التوراة والإنجيل إلى شعوب الدنيا، لكنّ قلّةٌ هم الذين يعرفون أنّها وصلت مترجمة في صيغتها المكتوبة و لم تصل في نصّها الأصلي. فبعض التوراة كتب بالعبريّة وبعضه الآخر بالآراميّة. وكلّ الشعوب الأوروبيّة والأمريكيّة دون استثناء تقرأ نصوصها المقدّسة في صيغتها المترجَمة. فقد عُرفت التوراة في صيغتها المكتوبة باليونانيّة (سنة 250 ق.م.)، من الترجمة السّبعينية les Septantes أو من اللاتينيّة (لاطين فولغاتا Latin Vulgate) في القرن الخامس ميلادية. و لم يعرف كذلك الإنجيل في لغته الآراميّة الأصليّة، بل في ترجمة القديس جيروم Saint Jérôme (القرن الثالث ميلاديّة) إلى اللاتينيّة أي "الفولغاتا". وقد اتصل اليهود بنصّهم المقدّس في لغات عديدة، الأشوريّة البابليّة أو الآراميّة في القديم (الترجوم) وكذلك اليونانيّة ثمّ في عديد اللغات الأوروبيّة في العصور الحديثة.

ومن اللاّفت أنّ النصوص المقدّسة لم تكتب إلاّ بعد زمن من موت المنبع الرئيسي، نبيّا كان أو حكيما، فكانت تتكوّن لها في البداية تقاليدُ شفويّةٌ تطول وتقصر حسب الوقت الذي يتطلبه التدوين.

لم يدوَّن القرآن في حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ولكنّه يقع في المرتبة الأولى من حيث الفترة الفاصلة بين الرسالة الشفويّة والتدوين، فقد دُوِّن 15 سنة فقط بعد وفاة محمّد (صلى الله عليه وسلم)، بينما دوِّن الإنجيل بعد 60 سنة من وفاة عيسى عليه السلام، في حين استَغرق تدوين التوراة التّي لم يكن اليهود الأوائل يعرفون منها إلاّ بضع أجزاء متفرّقة أكثر من 500 سنة. ولم يُشرع في كتابة تعاليم بوذا إلاّ 300 سنة بعد موت الحكيم ولم تدون أناشيد "الغاطا" الزرداشتية في الفارسيّة القديمة التّي يعتبرها المزدكيون كتابهم المقدس إلاّ بعد قرون.

أمّا المشعوذون من أمثال باب (واسمه الحقيقي سيّد علي محمّد شيرازي) وبهاء الله، المهدي المنتظر الذي انشق عن باب بعد أن كان أحد أتباعه (واسمه الحقيقي ميرزا حسين علي) أي "البَهائيّة" في سياق المجال الإسلاميّ وجوزيف سميث أي "المرمونيّة" في سياق المسيحيّة، فإنّ الأمر يختلف معهم إذ لا تعرف هذه الديانات أو النّحل أو حركات الردّة والكفر، حسب رأي البعض، تقاليدَ شفويّة قبل تدوينها، فتبدأ بنشر دعواها بالمكتوب الذي ينتشر على غرار "البيان" لباب و"الكتاب الأقدس" لبهاء الله و"كتاب مرمون" لجوزيف سميث.

من المهمّ أن نلفت النّظر إلى أنّ اللّغة التّي تنتج أثرا اعتُبر مقدّسا تصبح بدورها مقدسة وأنّ الكتابة التّي تُرسَم بها تصطبغ بدورها بهذه القدسيّة.

هكذا نُظر إلى الكتابة المسماريّة السّومريّة وهكذا كانت الهيروغليفيّة الفرعونيّة والبراهميّة (نسبة إلى الإله براهما) والدِّيفنغَري في الهندوسيّة والإيديوغرافيا الصينيّة القديمة والعبريّة القديمة والخطّ العربيّ الكوفي الذّي لا زلنا نتمسّك به كما هو... هذا بالإضافة إلى قدسيّة الكتاب والمكتوب، عند كلّ الشعوب التي عرفت الكتابة، حيث تربطها بالقدَر المحتوم.

لا غرابة إذن إن كان البعض لا يزال يعتقد أنّ العربيّة لغة مقدسة، لغة آدم أو لغة الجنّة، أو أنّها لغة منزَّلة، لا يمكن أن تتطور إلاّ نحو الفساد. إلاّ أنّ هذا هو أحد الأسباب التّي تجعل العربي والمسلم ينكر إمكانيّة ترجمة القرآن أو كتابته بأحرف أخرى.

ولكن، ولّما كانت الديانات تميل إلى الكونيّة، كان لا بدّ من اختيار أحد أمرين، إمّا فَرْضُ الدين وكتابه المقدّس في لغته وكتابته –وهو ما اختاره الإسلام وقام به بالفعل في زمن العزّ والانتصار–، أو ترجمته إلى أكبر عدد ممكن من لغات البشر وهو ما ذهب إليه الآخرون. ولّما كان الخيار الأول يفترض إشعاعا حضاريا أو قدرة عسكريّة افتقدها العرب منذ زمان، كان لا بدّ من الإذعان والقبول بالترجمة ولو عن مضض...

للمقدس تدرّج!

هل يرى المسلمون في أحاديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) القدسيّةَ نفسَها التّي للقرآن؟ ألا ينكر بعض المسلمين قدسيّة الأحاديث؟ ألا يقدِّس الشيعة أقوال أئمّتهم علي والحسين، مثلا؟ ألا تَفْ ضَرت هذه الأسئلة سلميّةً في القدسيّة تجعل بعضَها أقدسَ من البعض الآخر!؟ هذا ما تقوله لنا

اللغة في تصنيف المحرمات على سبيل المثال (حرام مُبهم، أمّ الكبائر، حرام بالإجماع...)، لكنّ هذا هو ما فهمه بهاء الله –المهدي المنتظر– الذي سمّى كتابه "**الكتاب الأقدس**" ليضعه فوق الكتب المقدّسة الأخرى ناسخا لها ومتمّما.

فهل تؤثّر هذه القداسة في إمكانيّة ترجمة النصوص؟ وهل تتجلى سلمية القداسة في سلميّة سهولة الترجمة أم يتعلّق الأمر بكثافة النصوص وشفافيتها بصرف النّظر عن هذه الاعتبارات؟ هذا هو ما سيحاول المتدخلون إنارتنا به.

ليس المقدّس "sacré" آلتي الآن إلى قضيّة ترجمة كلمة "sacré" الفرنسيّة بـــ: "المقدس" في العربيّة. لا بدّ أن يكون قد لفت انتباه البعض منكم ترجمة القرآن في الفرنسيّة بعبارة "Le Saint Coran" فقد جرت اللغة على عبارات "القرآن الكريم" و"المصحف الشريف" و"الكعبة المشرفة" و"البيت الحرام"... مع بعض المتغيرات. ومع أنّ إضافة "saint" إلى القرآن لا تعدو أن تكون من باب مزايَدةٍ ليس القرآن بحاجة إليها أو نسخ للعبارة التّي يشار بها إلى التوراة والإنجيل "La sainte Bible" فإنّ من يعيد ترجمة العبارة إلى العربيّة سيقع في حيرة .فهل سيترجمها "القرآن المقدس" أو "القرآن الحرام" باعتبار أنّ "المسجد الحرام" يترجم أيضا بـــ: "La Sainte Kaaba" ؟ لماذا إذن لا يجوز أن نقترح "Le Coran sacré" ونحن في ملتقى ترجمة "Les textes sacrés" أي النصوص المقدسة؟

هكذا نأتي إلى الإشكال الذّي يطرحه عنوان الملتقى بالفرنسيّة ولا يطرحه بالعربيّة، لأنّ كلمة "sacré" الفرنسيّة (و "sacred" الأنغليزيّة) ذات

الأصل اللاتيني sacer وأختها الإغريقيّة "hieros" تُظهر ازدواجيّةً تناسب الكلمة العربيّة "حرام" ولا تحملها كلمة "مقدّس" التّي لا تمثّل إلاّ جزءا منها. فقد جاء في التنزيل العزيز: "يا أيُّها الذين آمنوا إنَّما المشركون نَجَسٌ فلا يقرَبُوا المسجدَ الحرامَ بعد عامِهم هذا (... آية 28 سورة **التوبة**)، كما جاء: "حُرِّمت عليكمُ المَيْتَةُ والدَّمُ ولحمُ الخنـــزير وما أهِلَّ لغير اللهِ به..." (الآية 3 من سورة **المائدة**) فما تعنيه كلمة "حرام" هو ما تعنيه كلمة "sacré" أي ما يُحظَر الاقتراب منه لأنّه يدنِّس وما يُحظَر الاقتراب منه لأنّ يدنَّس. فلا يشغل المقدّس le saint إذن إلاّ هذا الجزء الأخير من كلمة "حرام" أو "sacré". فالحرام يعني إذن "المقدَّس" و"المدنَّس"، مثلما يعني "sacré" في الآن نفسه Le saint " و"le mal saint" ، لذلك لا يمكن أن تقابل كلمة "sacré" كلمة "مقدّس". ولو أخذت هذه اللفظة على ما هي عليه في الاستعمال الفرنسي لأحلّ للبعض الحديث مثلا عن **النّصوص المحرّمة**، أي في المعنى الثاني لكلمة "حرام sacré". لا ندري، بعد هذا التوضيح، ما صحّة أن يستعمل البعض متَّبعين ترجمةَ كتاب مُرسيا إلياد (Mircea Éliade, **Le sacré et le profane**) سجعَ "**المقدَّس والمدنَّس**" الذي يُغفل عنهم ازدواجيّة "sacré" (أي "حرام") كحامل للمقدس والمدنس في آن، وكان يفترض أن يترجم عنوان الكتاب بـــ: "المحظور والمباح"، مثلا.

وهذه كما نرى جميلة أخرى أوقعت بالجميع! ألا يقال إنّ الجميلات لسْنَ دائما وفيّات؟

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.